# الثقافتان

# بين فؤاد زكريا وجابر عصفور

بقلم : عبد الآخر حماد

تحت عنوان ( الثقافتان ) ومنذ ما يقرب من عشرين عاماً وتحديداً في يوم 4/19 /1994 كتب الدكتور فؤاد زكريا مقالاً بجريدة الأهرام يصف فيه المشهد الثقافي في مصر بأنه موزع بين ثقافتين لا تكاد تربط إحداهما بالأخرى إلا أضعف الروابط ، فأما الثقافة الأولى فهي الثقافة العلمانية المفتوحة التي ينفتح أصحابها على ثقافات العالم ويؤمنون بجدوى الانتفاع من تجارب الغير ،وأما الثقافة الثانية فهي الثقافة المغلقة التي يؤمن أصحابها بثقافة قد اكتملت منذ أمد بعيد ولم يعد أمام البشر بعد ذلك إلا ممارسة بعض الاجتهادات التي لا تمس الأصول ،وإطارهم الفكري ينتمي إلى الماضي الذي يعودون إليه في حل مشكلاتهم .

كتب الدكتور فؤاد زكريا ذلك الكلام إبان الحملة الشرسة التي كان نظام مبارك يشنها ضد التيار الإسلامي عموماً والجماعة الإسلامية خصوصاً حيث شهدت السجون والمعتقلات في تلك الفترة أقسى أنواع التعذيب ،وأضيف إلى ذلك تلك الحملات الإعلامية التي تشن عبر القنوات الإعلامية المختلفة بهدف تشويه صورة الإسلاميين وتخويف الناس منهم .

وكان المقال في مجمله انحيازاً واضحاً للفكرة العلمانية التي كان نظام مبارك يمثل تجسيداً حياً لها ، ورغم ذلك الانحياز إلا أني أذكر أني كتبت يومها في بعض الدوريات الإسلامية أقرر أننا مع اختلافنا البين مع الدكتور زكريا في توجهاته الفكرية إلا أننا نقر تماما بصحة ما قاله من وجود هاتين الثقافتين في مصر وأنهما على طريفي نقيض وأن الخلاف بينهما خلاف جذري مهما حاول البعض التقليل من شأنه .

أعاد هذا المقالَ إلى بؤرة الشعور مقالٌ نشر مؤخراً بالأهرام أيضاً للدكتور جابر عصفور بعنوان : (الدولة المدنية المكروهة والعلمانية الملعونة ) وذلك في عدد يوم الإثنين 13 /2012/2.

والظاهر أن الدكتور فؤاد زكريا كان أكثر جرأة ووضوحاً فيما يدعو إليه فقد وصف الواقع كاملاً ولم يُخفِ انحيازه إلى الفكر العلماني الذي هو في حقيقته إحياء للمنطق الأرسطي الذي يتصور الله سبحانه وتعالى مجرد خالق خلق ثم ترك الخلق يدبرون أمورهم كيفما يشاؤون، وهو يعي تماماً الفرق بين ذلك المنهج ومنهج النبيين الذي يصف أتباعه بأن إطارهم الفكري ينتمي إلى الماضي الذي يعودون إليه في حل مشكلاتهم .

أقول كان الدكتور فؤاد زكريا أكثر جرأة ووضوحاً رغم اختلافنا معه ،بينما نجد الدكتور جابر عصفور في مقاله المشار إليه يحاول أن يثبت عدم مناقضة العلمانية للأصول الدينية ،وهو في سبيل ذلك يتجنى على الحقيقة اللغوية والحقيقة التاريخية أيضاً ليأتينا بمفهومٍ جديدٍ للعلمانية لم يعرفه حتى دعاتها ومؤسسوها في بلاد الغرب ، وذلك أنه في معرض رده على بعض من يهاجمون العلمانية ممن يسميهم بالمتعصبين دينياً الذين وصل بعضهم إلى حد اعتبار تهمة العلمانية مرادفة للكفر والإلحاد ،يقول : (( الواقع والتحليل اللغوي للكلمة ينفي ذلك ( أي ينفي ما يقوله أولئك المتعصبون ) , فالعلمانية( بفتح العين وسكون اللام) هي من العلم( بفتح العين وسكون اللام) أي الدنيا والنسبة إليها علماني مثل عقل وعقلاني ومعني النسبة التركيز علي شئون الدنيا, ولكن دون أن يعني ذلك بالضرورة إغفال شؤن الآخرة, فنحن المسلمين نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً, دون أن يتناقض هذا مع كوننا نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً, ففي النهاية نحن أدري بشئون دنيانا, وعلينا أن ندير حياتنا بما يحقق لنا السعادة القصوي فيها, مؤمنين أنه حيثما وجدت مصلحة الأمة فثم شرع الله. قد يقول البعض: ولكن الاتهام مقرون بكلمة العلمانية المنسوبة إلي العلم بكسر العين.ولكن من قال إن النسبة إلي العلم تخرج الإنسان من دينه خصوصا إذا كان هذا السائل ينتسب إلي دين سمح أول ما أنزل من كتابه العزيز هو فعل الأمر اقرأ.... إلخ )).

وأقول : إن الحقيقة أن كلمة العلمانية سواء نطقناها بفتح العين أو بكسرها ،لا يعني بها أصحابها مجرد التركيز على شؤون الدنيا دون إغفال لأمر الآخرة ، وذلك أن هذه الكلمة إنما تعني عند من وضعوها إقامة الحياة بعيداً عن الدين، أو الفصل الكامل بين الدين والحياة؛ فقد جاء في دائرة المعارف البريطانية في تعريف كلمة (( Secularism )) وهي التي

تترجم خطأ بالعلمانية : (( هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها )).

ومن الناحية التاريخية فإن المناخ الذي نشأت فيه الأفكار العلمانية في الغرب يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن العلمانية كانت ثورة على الدين ورجاله ، والثورة الفرنسية التي كانت ثمرتها قيام أول حكومة علمانية كانت بالأساس ثورة ضد تحالف الملكية والكنيسة حتى كان شعارهم الذي أطلقه ميرابو ورددته الجماهير من خلفه : (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس ).

وجان جاك روسو صاحب كتاب العقد الاجتماعي الذي يعد إنجيل الثورة الفرنسية يقرر أن الناس كانوا في أول أمرهم في حالة طبيعية سعيدة ،لكن الإنسان بفعل الأطماع وتأثير الأديان تخلى عن النقاء الطبيعي وانتقل إلى حالة من الفوضوية ،ومن أجل ذلك طالب روسو بتنحية الدين عن شؤون السياسة تنحية تامة .

وفولتير الذي كانت كتاباته وأفكاره من أهم ما مهَّد لقيام الثورة الفرنسية كان معروفاً بانتقاداته اللاذعة للكنيسة وللمعتقدات النصرانية ،وهو القائل : (( إن التوحيد بين الدين والدولة لهو أبشع نظام، لذلك يجب إلغاؤه وإقامة نظام آخر يخضع فيه رجال الدين لنظم الدولة، ويخضع فيها الراهب للقاضي )).

وللإنصاف لا بد أن نقرر أن طغيان الكنيسة وتدخلها في شؤون الحكم كان قد فاق كل الحدود ،مع أن الدين الذي ينتمون إليه يقول : ( أعط ما لله وما لقيصر لقيصر ) ، وذلك يعني أن ثورتهم على الكنيسة كان لها ما يبررها ، لكن المشكلة هنا فيما يراد لنا من نقل ذلك النموذج الغربي إلى بلاد لا يعرف دينها كهنوتاً ولا حكماً ثيوقراطياً يحكم فيه الملوك وفق نظرية الحق الإلهي ، كما أنه أيضاً لا يعرف ذلك الفصام النكد بين الدين وشؤون الحياة ،بل يجعل السياسة العادلة جزءاً لا يتجزأ من الشرع الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد بُعث صلى الله عليه وسلم ليقول للناس إن الذي خَلق هو وحده المستحق للعبادة ،ومن مفردات العبادة أن يخضع الناس لما أمر به ( ألا له الخلق والأمر ) ،وليقول لهم إن الحكم بما أنزل الله فرض واجب ليس لنا فيه خيار : ( وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ) .

وهذا هو الأمر الذي لا يريد العلمانيون في بلادنا أن يعترفوا به .

وما يقوله الدكتور جابر عصفور وأمثاله من أننا أعلم بشؤون دنيانا وعلينا أن ندير حياتنا بما يحقق لنا السعادة القصوى ،ليس على إطلاقه ،بل إن ذلك مقيد بعدم مخالفة نصوص الشرع الحنيف، والله عز وجل أعلم بنا وبما يصلح لنا ( ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ،أما حديث ( أنتم أعلم بأمر دنياكم ) فقد قاله النبي صلى الله عليه وسلم في واقعة محددة هي واقعة تأبير النخل حين مر بقوم يلقحون النخل فظن صلى الله عليه وسلم أنه لا فائدة من هذا التلقيح فلما فسد وخرج شيصاً قال (أنتم أعلم بأمر دنياكم ). أخرجه مسلم (2363) من حديث أنس وعائشة .

لم يقل ذلك في كل شأن من شؤون الحياة وإنما قاله في أمر ظنه ظناً لم يكن فيه مشرعاً ولا مبلغاً عن ربه، ويبين ذلك حديث طلحة بن عبيد الله في نفس القصة فإن فيه أنه لما رآهم يلقحون قال: ( ما أظن يغني ذلك شيئاً)، وأنهم لما أخبروا بقوله صلى الله عليه وسلم تركوا التلقيح، فلما أُخبر صلى الله عليه وسلم بذلك قال : ( إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل ). أخرجه مسلم (2361) وأحمد ( 162/1) وابن ماجه (2470) .

فكل ما أخبرنا به النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه فهو وحي واجب الاتباع ،لكنه في واقعة تأبير النخل لم يكن مبلغاً عن ربه سبحانه وتعالى ،بل هو ظن ظنه ثم اعتذر عنه صلى الله عليه وسلم كما يقول الشيخ أحمد شاكر عند شرحه لذلك الحديث في مسند الإمام أحمد .

وأما مقولة أنه حيثما وجدت مصلحة الأمة فثم شرع الله فهي مقولة وردت في بعض كلام أهل العلم ومقصودهم منها أن شريعة الله تعالى هي التي تحقق مصالح العباد لأنها رحمة كلها وعدل كلها ،ليس مقصودهم أن يختار الناس بأهوائهم ما يرونه مصلحة ثم يقولون هذا هو شرع الله ، ولو كان الأمر كذلك لما كانت هناك حاجة لإرسال الرسل ولا لإنزال الكتب، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيميه: ((والقول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط، بل الله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم النعمة ،فما من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثنا به النبي صلى الله عليه وسلم ،وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك ،لكن

ما اعتقده العقل مصلحة وإن كان الشرع لم يرد به فأحد الأمرين لازم له : إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر، أو أنه ليس بمصلحة وإن اعتقده مصلحة)) [ مجموع الفتاوى 344/11] .

وعلى ذلك فكل مصلحة تخالف نصاً شرعياً هي مصلحة ملغاة لا اعتبار لها في دين المسلمين قال الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه أصول الفقه ص: 341 : ((كل مصلحة تخالف النصوص المقطوع بدلالتها تكون غير صالحة لأن تكون علة لإثبات حكم،فأولئك الذين يعتبرون المصالح التي استحدثتها أهواؤهم عللاً شرعية تهمل لأجلها النصوص قوم سدى لا يلتفت إليهم )) .

وأخيراً فإنه إذا كان الدكتور جابر عصفور يقول : ( فنحن المسلمين نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً, دون أن يتناقض هذا مع كوننا نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً ) فإننا نقول إن الذي يعمل لآخرته كأنه يموت غداً هو الذي يحتكم إلى شريعة الله في كل أمر ،لأنه يعلم أنه بعد موته سيلقى ربه فيحاسبه على عمله ويجازيه به خيراً كان أو شراً ، وليس الذي يأخذ من الدين ما وافق هواه ويترك ما لا يروق له ، ( وبالمناسبة فإن حديث : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ) حديث ضعيف كما قرره أهل العلم بالحديث.

هذا هو ديننا وتلك شريعتنا التي أمر الله نبيه وأمرنا من بعده بالاستمساك بها في مواجهة الأهواء التي لا تنضبط ،قال تعالى : ( ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ) .

عبد الآخر حماد

1432/3/25هـ

2012/2/17م